القسم الثاني

يوستينوس

الفيلسوف واللاهوتي

١

يوستينوس الفيلسوف

إن الذي يستوقف القارئ، عند اطّلاعه على مؤلفات هذا العظيم، هو حبّه الكبير للفلسفة. فيوستينوس هو فيلسوف بطبعه، ومحاور من الدرجة الأولى، ومحلّل وناقد ومستنتج على مثال كبار الفلاسفة. وحتى بعد اعتناقه المسيحيّة، لم يترك الفلسفة جانباً، بل ذهب بعيداً الى حدّ اعتبار المسيحيّة نفسها الفلسفة الوحيدة والضروريّة للخلاص، متمنطقاً طوال حياته برداء الفلاسفة اليونان، وجاعلاً من مدرسته الفلسفية التي أسّسها في روما منطلقاً للحوار الفلسفي العميق، ولكن ضمن إطار المسلّمات المسيحيّة التي كان يعود اليها في كلّ ما كتب، وفي كلّ ما بشّر به زملاءه الفلاسفة وتلامذته الذين كانوا مخلصين في التزامهم بتعاليمه. وكما ذكرنا سابقاً، فانه قبل ان يصبح مسيحيّاً كان قد درس جميع التيارات الفلسفية، متوقّفاً بنوع خاص عند افلاطون الذي شدّه بقوّة، واعتبره المعلم دون منازع، لغاية ما أشرقت عليه نعمة المسيح الذي أصبح فيما بعد معلّمه الوحيد وإلهه ومخلّصه. وتأكيداً على تعلّقه بالفلسفة وبالفلاسفة، فانه كان دائماً يحاول ان يشرح لتلاميذه كيف ان حكماء اليونان كانوا مسيحيّين

دون علمٍ منهم. إنّهم كانوا يبحثون عن الحقيقة، وبنوع خاص عن الاله الواحد، الأمر الذي ظهر واضحاً في فلسفة ارسطو، وقبله في فلسفة سقراط وافلاطون الالهي. لذلك نراه دائماً يقارن بين المسيحيّة والفلسفة، معتبراً ان أجمل ما نقرأه عند الفلاسفة الوثنيين مأخوذ عن توراة موسى. وبهذا المعنى يقول في كتابه «الدفاع الأول»، الفصل الرابع والاربعين، العدد التاسع، ما يلي: «إن كلّ تعاليم الفلاسفة والشعراء حول خلود النفس، والثواب والعقاب بعد الموت، والتأمل في الأمور الالهية، وغيرها من المعتقدات المماثلة، جميعها أخذت عن الانبياء». وبالنسبة إليه، فان افلاطون قد قرأ سفر التكوين وسفر العدد، حيث نرى تأثير ذلك في كتابه «طيماوس». كذلك تعليمه عن الأقانيم الثلاثة وعن نهاية العالم هو مأخوذ ايضاً عن سفر تثنية الاشتراع. وينهي كلامه عن هذا الموضوع قائلاً: «لسنا نحن الذين أخذنا عنهم، ولكنهم هم (أعني الفلاسفة) الذين يردّدون تعاليمنا ويأخذون عنها» (الدفاع الاول، ٤٠، ١٠).

هناك ايضاً فكرة مهمّة عند يوستينوس كان يحلو له ان يردّدها دائماً، وهي ان كلّ ما بشّر به الفلاسفة والمفكرون والشعراء والأدباء من حقائق قد أوحى بها اليهم «الكلمة الالهي». وبهذا المعنى يقول ايضاً في كتابه «الدفاع الاول»، ٥، ٣ ـ ٤، ما يلي: «لقد حاول

سقراط، بوحي من الكلمة الالهي، ان ينتزع شعبه من عبادة الأوثان ويوجهه الى عبادة الإله الحق، ولكن الشيطان، بواسطة الأشرار الذين تمثّل بهم، قد دفع اتباعه للحكم عليه كانسان كافر يحمل إليهم افكاراً جديدة. وهكذا ايضاً يحكمون علينا نحن الآن. والكلمة الالهي لم يوحِ بهذه الحقائق لليونانيين على لسان سقراط وحسب، بل ايضاً أوحى بها للبرابرة، بطريقة محسوسة وظاهرة، في شخص يسوع المسيح الذي أصبح انساناً». وفي الفصل ٤٤، ٢ ـ ٤، يقول ايضاً: «لقد عرفنا ان المسيح هو بكر الله، ونقول هنا إنّه الكلمة الالهي الذي بواسطته نال الجنس البشري الشراكة مع الله. وكلّ الذين عاشوا بوحي الكلمة هم مسيحيّون، حتى ولو حكم عليهم كملحدين وكفرة مثل سقراط وهيراقليطس وامثالهم عند اليونان، وكابراهيم وحنانيّا وعازاريّا وايليّا وغيرهم عند البرابرة. اما الذين عاشوا في الماضي بدون وحي الكلمة فهم اعداء المسيح وقتلة، وامّا الذين عاشوا بوحي الكلمة، دون خوف ورهبة، فهم مسيحيّون عن غير علمٍ منهم». وفي كتابه «الدفاع الثاني»، الفصل العاشر، يؤكد على الفكرة نفسها، ولكن بتعابير الفلسفة الرواقية، حيث يقول: «إن جميع الذين كتبوا من الفلاسفة والمتشرّعين في الماضي كانت افكارهم متناقضة، لأنهم لم يستوحوا المسيح، ولأن عقلهم لم يكن منوّراً بواسطة بذور الكلمة

الالهي. وامّا الذين حاولوا معرفة الحقيقة بواسطة العقل المنوّر وأعلنوها، فانهم قدّموا للمحاكمة وقتلوا... سقراط لم يقنع أحداً بأنه يموت من اجل اعتقاده، ولكن المسيح الذي عرفه سقراط جزئياً، والذي هو العقل الحاضر اينما كان، قد أقنع الفلاسفة والمفكرين والمثقفين، وحتى العمال والناس الجهلة».

هذه الافكار السامية التي بشّر بها يوستينوس، والتي تؤكّد على ان «الكلمة الالهي» هو الذي أوحى بأجمل ما كتب في الفكر البشري، وخصوصاً عند فلاسفة الاغريق، كانت الحافز الكبير للكثيرين من المفكرين والفلاسفة ليقيّموا انتاج العقل البشري من منظار مسيحي، وليؤكدوا على ان الله هو واحد للجميع، سواء كلّم الانسان بواسطة الوحي او بواسطة العقل. ورغم أن البعض من معاصري يوستينوس ذهب بعيداً الى حدّ التساؤل: لماذا المسيحيّة، ولماذا البشارة التي أتى بها المسيح، طالما ان الفكر البشري موجّه بواسطة «الكلمة الالهي»، وطالما ان الحقيقة هي اياها إن وحياً وان استنتاجاً عقلياً، فان الواقع برهن على ان الفيلسوف الشهيد، رغم انجذابه الى الفلسفة والفلاسفة الذين سبقوه، كان مسيحياً في تفكيره وحياته واستشهاده كما الذين سبقوه على درب الشهادة في سبيل ايمانه ومعتقده وتعلّقه بالمسيح. وبالعنف نفسه الذي دافع به عن

الحقيقة التي ظهرت في كتابات الفلاسفة الالهيين، دافع عن المسيحيّة، معتبراً اياها الفلسفة الوحيدة التي تختصر جميع الفلسفات البشرية، والتي يعود إليها كلّ عقل بشري، في العهد القديم قبل المسيح، وفي العهد الجديد بعد ظهوره انساناً بين البشر. ولقد أكّد مراراً على انّ تقديره واحترامه، واعتباره للحقيقة التي وجدها عند بعض فلاسفة الاغريق لم تكن مجاملةً، بل تنبع من قناعته على أن كلّ حقيقة تقال على لسان ايّ انسانٍ في هذا العالم هي حقيقة مسيحيّة، عرف ذلك قائلها أو لم يعرف. وثبات هذه الحقيقة عبر التاريخ لم يكن لو لم يرد ذلك «الكلمة الالهي» المتجسّد في يسوع المسيح، ابن الله الحقيقي. ولكن المسيحيين وحدهم، الذين يؤمنون بالعقل وبالوحي على السواء، كانت لهم المعرفة الحقيقية بهذا الأمر، والجرأة الكاملة لاعلان اعتقادهم امام البشرية جمعاء. فالحقيقة هي في متناول يدهم كاملة ودون انتقاص، والمسيح أعلنها لهم ومات من اجلها ومن أجل خلاص البشرية التي جاء ليعيدها الى الشراكة مع الله. ولكن امتلاك الحقيقة لا يكفي وحده للخلاص، بل يجب ان يعيش الانسان هذه الحقيقة بكل أبعادها الروحية والانسانية. من هنا نراه يشدّد على انفتاح القلب والعقل معاً، وبالتالي على القناعة الداخلية التي توصل الى الايمان العميق بالله، إذ يقول: «إنه ليس من السهل أن نقنع النفوس الجاهلة بكلمات وجيزة... وبإمكاننا ان

نستشهد باقوال جميع الانبياء، ولكن ليس بامكاننا إقناع الذين ليس لهم آذاناً صاغية وقلوباً منفتحة على النور. لذلك يجب ان يكون الايمان بالله الدافع الاساسي لكي تصل الحقيقة كاملةً الى القلوب، بقطع النظر عن الأقاويل التي تحرّكها العواطف البشرية غير السامية، وبالتالي الآراء المستندة الى عبودية الرأي العام الذي يؤثّر على الكثيرين ويمنعهم من اعتناق الحقيقة» (الدفاع الاول، ١٢، ١١؛ والدفاع الثاني، ١، ١٢).

كذلك يشدّد يوستينوس على أن الايمان الحقيقي لا يكون إلاّ بنعمة من الله، وهذا ما أوصاه به الشيخ الجليل الذي التقاه على شاطئ البحر، إذ قال: «يجب ان تصلّي قبل كلّ شيء كي تُفتح لك أبواب النور، لأنّه ليس معطىً لأحد ان يرى ويفهم اذا لم ينعم عليه الله ومسيحه بذلك» (الحوار مع اليهودي تريفون، ٨، ٣). وفي موضع آخر يقول: «اذا لم ينل أحدٌ النعمة من الله ليفهم الأنبياء وأقوالهم، فعبثاً يردد كلمات طنّانة ويخبر عن احداث لا يفهمها» (الحوار، ٩٢، ١١). ويوستينوس نفسه يؤكد ايضاً على أنّه لولا نعمة الله لم يتمكّن من فهم الكتاب المقدس، معلناً ان الصلاة الطويلة التي صعّدها امام الله هي التي فتحت عينيه على النور ليقدر ان يفهم المعنى الحقيقي لكل كلمة جاءت في الانجيل وفي الأنبياء. فالعقل وحده ليس بامكانه الوصول الى

الهدف الأخير إلاّ من خلال الايمان. والفلسفة التي تقود الى معرفة الله تبقى عقيمة اذا لم يكن الايمان قد كلّلها لكي تفرّق بين الخير والشر وتكون دستور حياة. من هنا خطأ الفلسفات العديدة التي توجّهت بوحي من الشيطان فأكثرت الآلهة وسمحت بتجاوزات اخلاقية أعاقت مسيرة الخلاص التي حدّدها الله للبشرية. لذلك نراه يتهم الوثنية بالفسق والفجور، الأمر الذي دفع بعدئذ تلميذه «تاتيانوس» ليتخذ موقفاً صريحاً ومعلناً من لا أخلاقية الديانات الوثنية. ورغم اعترافه بان السواد الأعظم من الوثنيين سقط في الشرّ بدافع من وحي الشيطان، غير أن قلّة منهم، امثال «سقراط» و«هيراقليطس» و«ميزونيوس»، الذين حكم عليهم بالموت، قد كانوا الشاهد الحقيقي في عالم ملوّث الدجل والحقد والكفر والالحاد والتعنّت والوهم» (الدفاع الاول، ٥، ٣؛ والدفاع الثاني، ٨، ١ ـ ٢). لذلك يؤكد اخيراً على ان الفلسفات المتعدّدة ناقضت نفسها في بعض الاحيان لأنها لم تكن تحوي الحقيقة كاملة، بل بعض بذور الحقيقة (الدفاع الاول، ٤٤، ١٠). من هنا يخلص الى القول: إن الفلسفة لا تحمل إلينا إلاّ حقائق جزئيّة، وليس الحقيقة كاملة التي نراها في الكتب المقدسة. فحكماء الاغريق لم يوصلونا الى المسيحيّة، بل كتب الانبياء هي التي هيأتها وأوصلتنا اليها. وبهذا المعنى يقول في كتابه «الدفاع الاول»، ٣١، ١، ٧ ـ ٨: «إن

الروح النبويّة التي كانت موجودة في أنبياء الله عند اليهود هي التي أعلنت عمّا سيجري بعدئذٍ من احداث خلاصية مهمّة ونبؤاتهم قد حفظت بعناية من قبل ملوك يهوذا المتعاقبين في مخطوطات عبرية كتبت بيد الانبياء أنفسهم... وفي هذه المخطوطات نقرأ أن يسوع، مسيحنا، يجب ان يأتي، وان يولد من عذراء، وان يصبح يافعاً وانساناً كاملاً، وأن يشفي كلّ مرض وكل عاهة، وان يقيم الموتى، وهو ابن الله الذي سيرسل رسله لاعلان هذه الأمور في العالم أجمع، وان الوثنيين هم الذين سيؤمنون به. هذه النبؤات كتبت قبل خمسة آلاف، وثلاثة آلاف، وألفين، وألف، وثمانماية سنة قبل مجيئه، ذلك لأن الانبياء تتابعوا من جيل الى جيل وقد أعلنوا كلّ هذه الأمور». لكن يوستينوس يستدرك ويقول: «عندما نرى الأنبياء يعلنون عن نبؤاتهم، فانه من الضروري ان نفهم ان هذه النبؤات ليست منهم، بل هي من الكلمة الالهي الذي أوحاها اليهم» (الدفاع الاول، ٣٦، ١). فالكلمة الالهي هو روح النبوّة نفسها، لا فرق بينهما، بل هما واحد. وبهذا المعنى يقول في الفصل الثالث والثلاثين، العدد ٦، من «الدفاع الاول»: «واجب علينا ان نفهم ونؤمن أن الروح النبويّة والكلمة الالهي هما واحد، لا تمييز بينهما، وهذا الكلمة هو بكر الله، كما أعلن ذلك موسى النبي. هو الذي تجسّد في أحشاء العذراء، وجعلها امّاً، لا بالزرع البشري، بل عجائبياً

بواسطة الروح القدس».

من كلّ ما تقدّم نستنتج ما يلي: إن الكلمة الالهي، الذي هو يسوع المسيح، هو الذي أوحى للفلاسفة وللعلماء وللشعراء وللمفكرين قبل تجسّده في احشاء العذراء مريم، واعلانه بعدئذٍ عن بشارته التي أتى من اجلها الى الارض. هو الذي حرّك عقول الوثنيين وأوحى لهم بالحقيقة من خلال العقل، حتى ولو كانت حقيقة جزئية، الى ان تمّ ملء الزمان وظهر بين البشر حاملاً الخلاص للذين كانوا ينتظرونه. هو ذاته الذي أوحى للفلاسفة وللحكماء امثال سقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم من الذين علّموا شعبهم وماتوا في سبيل تعاليمهم ومعتقدهم. هو الذي أوحى لانبياء العهد القديم الذين بشّروا بمجيئه وانتظروه في ملء الزمن. هو الذي حرّك العقل البشري ليرى النور الحقيقي من خلال تأملاته التي أثمرت وعياً كاملاً وتعليماً حقيقياً. هو نفسه الذي رعى وسهر ووجّه الانسان عبر العصور، الى ان ولد انساناً بيننا وأعلن الحقيقة كاملةً من خلال المسيحيّة التي هي الفلسفة الوحيدة والمفيدة للجنس البشري.

فيوستينوس الفيلسوف هو يوستينوس المسيحي الذي لم يفرّق بين الوحي والعقل على صعيد الحقيقة، بل اعتبر ان كلّ حقيقة أعلنت في هذا العالم هي من

وحي الكلمة الالهي. لذلك كان مثال المحاور مع الوثنيين واليهود، رغم عنفه في دفاعه عن المسيح والمسيحيّة والمسيحيين، ورغم أنّه أرجع كلّ حقيقة أعلنت عبر العصور الى المسيحيّة بالذات، معتبراً ان الذين اعلنوها هم مسيحيّون دون علم منهم. لذلك نراه في اشراقه صورة الانسان الذي تخطّى حدود معتقده ليكون كونياً في رؤياه التي نبعت من قناعته بان المسيح، الكلمة الالهي، هو الذي وجّه العقل البشري من الخلق وحتى يومنا هذا. إنّه، في نظره، الألف والياء، إنه البداية والنهاية.

٢
يوستينوس اللاهوتي

يمكننا القول، كمقدّمة للاهوت يوستينوس، إنّه كان مسيحيّاً حتى التحدّي. فبعد اعتناقه المسيحيّة التزم الى أقصى حدّ بايمانه، وراح يدافع عن المسيحيين الذين اعتبرهم مكروهين ومضطهدين ظلماً. وكان يفتخر علناً انّه ينتمي الى كنيسة المسيح، مؤكداً على استعداده للموت في سبيل ايمانه. امّا حلمه الذي عاشه طوال حياته فهو ان يرى جميع البشر قد انتقلوا الى حضن كنيسة المسيح. لذلك نرى بوضوح ان عقيدته هي عقيدة الكنيسة الجامعة، وجميع مؤلفاته التي وصلتنا تؤكد على أنه لم يحد قيد شعرة عن تعاليم الانجيل وتعاليم الكنيسة. لا بل بالاحرى كان متشدّداً في ذلك، رغم انفتاحه على جميع الفلسفات التي مجّدها، وخصوصاً على تعاليم الانبياء التي يستشهد بها كثيراً. اما موقفه من الهراطقة فكان موقفاً رافضاً كليّاً لتعاليمهم. من هنا نراه يعلن في كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون»، الفصل الخامس والثلاثين، العدد ٢، ٤ ــ ٦، ما يلي: «هناك أناس يعلنون انهم مسيحيون، ويعترفون أن المسيح قد صلب ومات وقام، ولكنهم يعلّمون تعاليم مغايرة لتعاليمه، هي من وحي النفوس

الشريرة... هؤلاء لسنا في شراكة معهم. إنهم ملحدون وكافرون وظالمون وفاجرون، ولا يعرفون من المسيح إلاّ الاسم. يقولون إنهم مسيحيّون، ولكن في الواقع هم مثل الوثنيين الذين يضعون اسم الله على كتبهم، غير أن أعمالهم هي أعمال الملحدين والفاسقين. وبين هؤلاء «المركيانيون» و «الفلانتيون» وغيرهم من الهراطقة. كلّ واحد منهم يسمّي نفسه باسم مؤسسهم وانطلاقاً من تعاليمه، كما الذين يعتنقون الفلسفات التي تُسمّى باسم مؤسّسيها. هؤلاء نحن نرفضهم ولا شراكة لنا معهم». وامّا الهرطقات فهي من وحي الشياطين، لذلك نجد فيها الالحاد، والشتائم، والشكوك التي تؤدي الى ابعاد الانسان عن الله، وخصوصاً هرطقة «سيمون الساحر» و«ماركيون» وغيرهما.

واما تعاليم يوستينوس فهي تعاليم الانبياء والمسيح والرسل: «التعاليم التي أخذناها عن المسيح والانبياء السابقين له هي وحدها الحقيقيّة بالنسبة الى اساطير اليونانيين... فهناك اثنا عشر رجلاً انطلقوا من اورشليم ليبشروا العالم. لقد كانوا رجالاً بسطاء، وحتى أنهم لم يكونوا يتقنون فن الكلام. ولكنهم أعلنوا، باسم الله، أنهم أرسلوا من المسيح ليبشروا بكلمة الله» (الدفاع الاول، ٢٣، ١؛ ٣٣، ٣). وهذا ما علّمه الرسل وآمن به جميع المسيحيين الذين حملوا هم بدورهم البشارة الى

العالم بوحي من الروح القدس. إنّه التقليد الذي أنعش الكنيسة وثبّتها عبر الاجيال. وهذا التقليد هو منتشر في العالم أجمع، مؤكداً على ان الكنيسة الجامعة تستند إليه في توجيهاتها وتعاليمها ولاهوتها، وما المعمّد سوى المولود الجديد في هذه الكنيسة، بين اخوانه المنتشرين في العالم أجمع، والذين يؤمنون الايمان نفسه. ويوستينوس يفتخر بانه أحد اعضاء هذه الكنيسة المنتشرة في اصقاع الدنيا، وانه يؤمن الايمان نفسه، ويعلم تعاليم المسيح كما يعلمها اخوانه ايضاً، نقلاً عن الانجيل وعن الرسل الذين بشّروا به. وتعاليم المسيح والكنيسة تتمحور، في نظره، حول وحدانية الله والثالوث، وبنوع خاص حول البشارة الجديدة التي حملها الاقنوم الثاني الى البشر. من هنا يؤكد على أن ايمان المسيحيين هو الايمان الحقيقي وليس ايمان كفرة وملحدين. وبهذا المعنى يقول في كتابه «الدفاع الاول»، ١٣، ١، ٣، ما يلي: «نحن لسنا ملحدين وكفرة لأننا نؤمن بخالق هذا الكون. اننا نؤمن بالذي ولد من الله، يسوع المسيح، الذي صلب على عهد بيلاطوس البنطي، حاكم اليهودية، ايام امبراطورية طيباريوس قيصر. إنه ابن الله الحقيقي». واما الثالوث فيؤكد عليه من خلال كلام العماد: «باسم الله الآب وسيّد كل شيء، وباسم مخلصنا يسوع المسيح، وباسم الروح القدس، الثلاثة الموجودين في هذا الماء المقدس» (الدفاع الاول،

٤١، ٣). وفي موضع آخر يقول ايضاً: «إن المعمد في الماء هو معمّد باسم الله الآب وسيّد كلّ شيء، وباسم يسوع المسيح الذي ينوّره، الذي صلب على عهد بيلاطوس البنطي، وباسم الروح القدس الذي أعلن بواسطة الانبياء عن كلّ ما يتعلّق بيسوع» (الدفاع الاول، ٤١، ١٠ و ١١). وفي كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون»، يقول: «إن يسوع الذي هو المسيح ابن الله، والذي صلب ومات وقام وصعد الى السماء، هو الذي سيأتي ليدين جميع البشر من آدم والى نهاية الدهور» (٤٣، ١؛ ٨٥، ٢).

هذه هي الخطوط العريضة التي وردت في مؤلفات يوستينوس وفي تعاليمه وحواراته التي بقيت لنا عبر التاريخ. إنها، في الواقع، تعاليم الانجيل والكنيسة. ورغم انغماسه في التحاليل الفلسفية، فانه بقي محافظاً على جوهر العقيدة كما تعلّمها من الذين سبقوه. فالآب، في نظره، هو الخالق وسيّد كلّ شيء، والابن هو المعلّم والمخلّص، والروح القدس هو الروح النبوي الذي يوجّه المؤمنين بالوحي. فما هو بالتفصيل هذا التعليم؟ وكيف وسّع فلسفته ولاهوته انطلاقاً من هذه المسلّمات الاساسية؟ هذا ما سنراه تباعاً من خلال ما ورد عنده حول الثالوث الأقدس، وحول الملائكة، والشياطين، والنفوس، ومصير الانسان، والاسرار في الكنيسة.

١ ـ الله الآب في لاهوت يوستينوس

إن نقطة الانطلاق في لاهوت يوستينوس هي الايمان بالله. وهذا الايمان لم يصل إليه، لا عن طريق الفلسفة، ولا عن طريق المسيحيّة، كما يذكر هو ذلك، بل بنعمة من الله خاصة، بعد ان ركع وصلّى وطلب مراراً من الله هذه النعمة. فالفلسفة قادته الى اكتشاف الله، والمسيحيّة أوصلته الى معرفة الله. امّا الايمان به فهو نعمة منه تعالى، ولا نحصل عليها إلاّ اذا توسّلنا إليه وطلبنا منه ذلك بالحاح.

هذا الايمان دفعه اولاً الى ان يعطي تحديداً ميتافيزيكيّاً لله، في كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون»، بقي مرجعاً للأجيال اللاحقة. يقول: «إن الله هو الذي يبقى مشابهاً لنفسه دائماً، وهو سبب كلّ وجود... فافلاطون يقول إن عين الروح قد أعطيت لنا لنتأمل الكائن من خلال شفافيته. وهذا الكائن هو مبدأ جميع صورنا المجرّدة. إنه لا لون له، ولا شكلاً خارجياً، ولا مساحة معيّنة، ولا اي شيء ممّا يقع تحت الحواس. إنه كائن فوق كلّ جوهر، وفوق كلّ وصف، وليس بامكاننا ان نفهمه ونعبّر عنه. إنه الجمال الواحد والخير الواحد. وهو موجود في النفوس الصالحة لأنها ترغب دائماً في معرفته ولقائه» (٣، ٥؛ ٤، ١). هذا التحديد الميتافيزيكي نشتمّ منه تأثير افلاطون على يوستينوس.

إنه بدون شك حصيلة قراءاته لحوارات الفيلسوف الالهي، الذي تعلّق به لأنّه وجد عنده جواباً على فضوليته وقلقه بالنسبة الى معرفة الله، بعد أن رفض الفيلسوف الرواقي الذي لم يجد ضرورة للبحث في ما يوصل الى معرفة الله، والفيلسوف الفيثاغوري الذي فضّل علم الموسيقى والفلك والرياضيات على البحث ايضاً في العلوم الالهية. وحتى بعد اعتناقه المسيحية بقي يوستينوس مخلصاً لفلسفة افلاطون، وذلك لأنه وجد فيها الأجوبة المقنعة على تساؤلاته ورغباته. وتأثير افلاطون واضح جداً في تحديده لسموّ الله، وهذا ما نقرأه في «الدفاع الاول»، ٦، ١، حيث يقول: «اننا نؤمن بالله الحقيقي، أب العدالة والحكمة وجميع الفضائل، الذي لا يوجد فيه شرّ مطلقاً». إنه الله الذي لا تسمية له: «أن يكون له اسم، فهذا يعني أن هناك من كان قبله ليعطيه هذا الاسم. وكلمات أب، وإله، وخالق، وسيّد، ومولى، ليست سوى تسميات تدلّ على انعاماته واعماله» (الدفاع الثاني، ٦، ١ ــ ٢). ولكن، مهما كان تأثير افلاطون واضحاً، فان فكرة التسامي الالهي تبقى عنده مسيحيّة الى اقصى حدّ: «إن الله ليس بحاجة الى تقادم البشر المادية، وذلك لأنه هو الذي يعطي كلّ شيء، ولقد تعلّمنا، ونحن نؤمن ونؤكد أنه يعطي الذين يحاولون ان يتمثّلوا بكمالاته وبحكمته وبعدله وبحبّه للبشر، واخيراً بكل صفات هذا الاله الذي لا يوافقه ايّ

اسم مخلوق» (الدفاع الاول، ١٠، ١). وكتب الانبياء التي كان يقرأها يوستينوس باستمرار تؤكد على ذلك. فان إله اسرائيل، الذي تكلم عنه هؤلاء الانبياء، هو فوق كلّ ضعفٍ بشري وكلّ نقص انساني. إنّه الكمال الذي لا يدرك، والاله الذي لا يصل إليه بشر. إنّه الاله الذي لا شراكة له مع الشيطان الذي أوحى لبعض الناس بأعمال شائنة، وبالعبادات الوثنية. إنه الاله القدّوس، الكامل، الذي لا يقدر ان يعبّر عنه أيّ انسان في هذه الدنيا.

زيادة على ذلك، فان الانجيل أكّد له هذه التحديدات الميتافيزيكية. ففي انجيل القديس متى، الفصل الحادي عشر، العدد ٢٧، نقرأ: «ليس أحد يعرف الابن الاّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاّ الابن، ومن يريد الابن ان يكشف له» (الدفاع الاول، ٤٣، ٣). كذلك، لا ابراهيم، ولا اسحق، ولا يعقوب، ولا اي انسان آخر لم ير الآب الفائق الوصف وسيد كلّ شيء (الحوار، ٨٧، ٤). لذلك يؤكد يوستينوس على أن الله لا يظهر للعالم مباشرة، ولكن بواسطة وسيط مثله. واليهود يُخطئون عندما يقولون إن الله كلّم موسى مباشرة: «إن الله دائماً في السماوات، لم يره أحد، ولم يكلم أحداً. إنه خالق كلّ شيء، وإنه أب كلّ شيء» (الحوار، ٥٦، ١)، ولكنه كلّم موسى والانبياء والفلاسفة بواسطة «الكلمة الالهي»، عبر الزمن، وهو الذي أوحى بالحقيقة التي

أعلنها جميع البشر الذين عرفوه، كلّ بطريقته الخاصة. وأهمّ برهان على سموّ الله ليس البرهان الفلسفي، ولكن البرهان الديني الذي يتمثل بخلق الله لجميع الكائنات في هذا العالم. إنه الخالق والأب، ولقد صنع العالم من اجل البشر ومن اجل سعادتهم. وبما انه يسهر على كلّ شيء من خلال عنايته الالهية، فمتوجّب علينا أن نشكره على الحياة التي اعطاناها، وعلى الاهتمام الذي يوليه تجاهنا لكي نبقى بصحة جيّدة، رغم تغيّر الفصول الطبيعيّة، ورغم كلّ ما يطرق علينا من معوقات وآلام في هذه الدنيا. وبواسطة شريعته الالهية، فان النجوم والكواكب تساعد على نموّ الاشجار وثمارها في الارض عندما تتغيّر الفصول. إنها اشارة منه لكي نعبده ونحبّه ونتعلّق به. واذا ما اردنا أن نعود الى الفلسفات التي سبقت المسيحيّة نرى ان موقف الرواقية يؤكد على قول يوستينوس الذي مجّد النظام الكوني، ولم يسبقه الى ذلك بين المسيحيين سوى القديس كليمنضوس الروماني في رسالته الى أهل قورنثية. فالاثنان التقيا حول تمجيد العناية الالهية في خلقها للكون وسهرها عليه، والله الآب السماوي، كما ذكر يسوع في انجيله، هو الذي يشرق شمسه على الأخيار والاشرار، وينزل غيثه على الصالحين والظالمين، ويغذّي طيور السماء، ويلبس زهور الحقل أجمل حللها. إنه الاله الأب الذي يعمل كلّ شيء في سبيل ابنائه الذين أوجدهم في هذا الكون

المنظم بارادته وبسهره الدائم. ولكنَّ الملفت للنظر في هذا التعليم هو تأثير افلاطون المباشر على يوستينوس الذي لا يفرّق بين الله الآب و«صانع العالم» (Le Démiurge) عند الفيلسوف الالهي في كتابه «طيماوس»، وهذا ما جعله يعتقد أن افلاطون قد قرأ العهد القديم وأخذ عنه. لذلك نراه يردّد دائماً كلمة «صانع العالم» عندما يتكلم عن الله الآب خالق العالم، معتقدا أن كلّ انسان عاقل لا يرفض فكرة الخالق الذي هو أب الكون الساهر على مخلوقاته. ولكن المشكلة عنده تطرح ساعة يتناول قضية المتناهي واللامتناهي، وقضية الوحدة والكثرة. ورغم فكرة تسامي الله، فانه لا يرفض تدخّله في شؤون الكون بواسطة «الكلمة الالهي». إن الله لا يظهر للعالم، ولكن «الكلمة الالهي» هو الذي يتدخل من اجل خير البشرية جمعاء. والله هو متسامي، لا لأن ليس بامكانه التدخل المباشر في شؤون المخلوقات، ولكن لأن العقل البشري ليس بامكانه فهمه من خلال قواه الطبيعيّة الخاصة. لذلك يجد الحلّ في الوحي الذي جاء به يسوع المسيح، المخلّص، الاقنوم الثاني من الثالوث، الذي كشف لنا عن حقيقة الآب في انجيله. ورغم هذا الكشف والتوضيح، فان الله الآب يبقى بعيد المنال امام عقلنا القاصر. وبهذا المعنى يقول في كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون»، الفصل ٨٧، العدد ٢: «إن الله الآب، المتعذّر التعبير عنه، وسيد الكون، لا

ينتقل من مكان الى آخر، ولا يذهب في نزهة، ولا يرقد، ولا يقف، بل يبقى في عرشه اينما كان. نظره ثاقب، وكذلك سمعه، ليس لأن له أعين وآذان، ولكن بقوته التي لا تحدّ. إنّه يراقب كلّ شيء، ويعرف كلّ شيء، وليس أحد منا خافياً عليه. إنه لا يتحرّك، ولا مكان بامكانه احتواؤه، حتى العالم كله، وذلك لأنه كان قبل ان يكون العالم».

وباختصار، فان إله يوستينوس هو إله توحيدي، أرضى الفلاسفة واليهود خلال القرن الاول والقرن الثاني، وقرّبهم من المسيحيين. لذلك تابع المدافعون المسيحيّون خطّه الفلسفي واللاهوتي من بعده، الأمر الذي دفع بالفيلسوف الوثني «سيلسوس» ليكتب كتابه الشهير «الخطاب الحقيقي» الذي انتقده بعدئذ «اوريجانوس»، رغم ان «سيلسوس» يقرّ بوجود إلهٍ عظيم، أوجد الملائكة والشياطين ليكونوا صلة وصلٍ بينه وبين البشر. امّا اسم هذا الاله فلا أهميّة له. أن يكونَ «جوبيتر»، أو «أدوناي»، أو «الصباووت»، أو «أمون»، أو غير ذلك، فهذا ليس مهمّاً، المهمّ أنه موجود. وهنا نرى تأثير يوستينوس على «سيلسوس» وغيره من الفلاسفة، بقطع النظر عن اعتناقهم المسيحيّة أو رفضهم لها. وتجدر الاشارة ايضاً الى أن اليهودي «ڤلاڤيوس جوزف» كان له تأثير كبير على يوستينوس في هذا

النص الذي نقرأ في كتابه «ضد أبيّون»، الفصل الثاني، ٦٦، ٦٩، والذي يشابه الى حدّ بعيد تحديد الفيلسوف الشهيد في كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون» الذي ذكرناه سابقاً. يقول «ڤلاڤيوس جوزف»: «لقد علّمنا موسى أن ننظر الى الله كسببٍ لكل خير أفاضه على البشر، أو حصلوا عليه بواسطة معاناتهم وطلبهم له. فكلّ فكر أو عمل هما تحت ناظريه. إنّه فريد، لا سابق له، ولا يتغيّر، ولا يتبدّل مطلقاً. إنه فائق الوصف، وليس بامكان العقل البشري ان يدركه. نعرفه لأنه يريد ذلك، ولكننا لا نقدر أن نسبر غور جوهره. وان يكون حكماء الاغريق، وموسى، قد توصلوا الى معرفة ألوهته، فهذا امر لا أريد البحث به الآن. ولكنه من الاهمية بمكان ان ندرك أنّ «ڤيتاغوروس»، و«أنكساغوروس»، و«أفلاطون»، وبعدهم جميع الفلاسفة قد أكّدوا على هذه الألوهة وتساميها فوق كلّ شيء» (راجع بويش، المدافعون اليونان في القرن الثاني المسيحي، باريس، ١٩١٢).

ب ـ الله الابن في لاهوت يوستينوس

أن يكون الله الآب فوق كلّ تحديد، وهو أكبر من أن يسعه الكون، على رحبه؛ وأن يكون أوسع من عقولنا التي، مهما تشعّبت طيات الذكاء فيها، تبقى عاجزة عن

إدراكه، فان ذلك لم يمنع يوستينوس من التأكيد على ان معرفته تتمّ بواسطة «كلمته»، أعني بواسطة الاقنوم الثاني، يسوع المسيح، الذي ظهر بين البشر، حاملاً توجيهاته وتعاليمه، والمفروض علينا ان نحبّه ونعبده مثل أبيه السماوي. ففي «الدفاع الاول»، الفصل السادس، العدد ٢، يقول: «معه (أي مع الآب) نبجّل، ونعبد، ونكرّم، بالروح وبالحقيقة، الأبن الذي أتى من قبله حاملاً لنا تعاليمه، وكذلك جيش الملائكة الصالحين الذين يحيطون به ويشابهونه، والروح القدس، الروح النبوي». هذا التأكيد على الايمان بالثالوث الأقدس لم يأتِ به يوستينوس إلاّ من الانجيل، لأنّ الفلسفة أوصلته الى اكتشاف الله وحسب. ولقد حاول، وهذا ما سنراه لاحقاً، أن يبرهن عقلياً على وجود «الكلمة الالهي»، ولكن هذا البرهان لم يكن على أساس تفكيره الفلسفي، بل استناداً الى التقليد، والى تعليم الرسل، بان المسيح هو بكر الله وكلمته. إنه، كما يقول في كتاب «الحوار مع اليهودي تريفون»، الفصل ٩٥، العدد ١: «الابن الوحيد لإله الكون، المولود منه كلمةً وقوةً، وبالتالي المولود من العذراء بالجسد، كما نقل إلينا ذلك الرسل القديسون».

إذن، الاسم الذي يلقّب به يوستينوس الاقنوم الثاني هو «الكلمة الالهي»، او «اللوغس». هذا «اللوغس» قد

اتّخذ شكلاً مادياً عند البرابرة، ومفهومه هو غير المفهوم الذي تكلّم عنه «سقراط» في حواراته. وعندما كان يتوجه الى يهود الشتات، والى الوثنيين المثقفين، لم يكن مفهوم «اللوغس» عنده كمفهومهم هم، بل كان يعبّر عن المفهوم الكنسي «للوغس» الذي نقله التقليد إليه، وبنوع خاص المفهوم الذي يحدّد الايمان بان يسوع هو الاله الذي أتى ليخلّص العالم من الخطيئة. إنه «لوغس» القديس يوحنا الرسول في انجيله وفي الرؤيا. إنه «الكلمة صار جسداً وحلَّ فينا، وقد أبصرنا مجده، مجد وحيدٍ من الآب، مملوءاً نعمةً وحقاً» (يوحنا، ١، ١٤). إنه «اللوغس»، بكل بساطة، الذي كان يؤمن به كلّ مسيحي، دون تعقيد، ودون تحليلات فلسفيّة. إنّه «لوغس» الايمان الذي بدونه تكون المسيحيّة ناقصة في تعاليمها. إنه «لوغس» الخلق الذي بواسطته صنع الآب السماوي كلّ شيء. فالله هو «صانع العالم»، و«اللوغس» هو المساعد. من هنا كان رفض يوستينوس لهرطقة «ماركيون» الذي «انكر الله خالق السماء والأرض، والمسيح ابنه الذي تكلّم عنه الانبياء، ليبشر باله آخر وبمسيح آخر» (الدفاع الاول، ٥٨، ١؛ ٢٦، ٥).

وبالعودة الى الخلق، فان يوستينوس يميّز، في بعض الأحيان، بين التخطيط والتحقيق. إنه يحتفظ لله

بالتخطيط، و«للكلمة» أو «اللوغس» بالتحقيق. لذلك نراه يفسّر الفصل الأول، العدد ٢٦، من سفر التكوين: «لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا»، بأن صفة الجمع هنا هي لله ولكلمته، وبان «الكلمة» هو الوسيط الذي حقّق تخطيط الله. وهذا لم يتوصّل إليه من خلال الفلسفة، بل من خلال الوحي. ورغم ان الآب لا يدرك بواسطة العقل البشري، فان ما قاله الأبن هو واضح حول ابيه السماوي. فالمسيح هو الموحي، والله الآب قد عرفته البشرية بواسطته إن في اليهودية، او في الوثنية. وكلّ ما علّمته الفلسفات الاغريقية من حقيقة هو من وحي «الكلمة الالهي». واذا كان هناك من تناقض فيها، فهذا يعني أنّها لم تعرف هذا «الكلمة». كذلك اليهود، فان معرفتهم لله تعود ايضاً الى وحي «الكلمة الالهي» في العهد القديم. وكلّ مرّة كان الله يظهر للآباء او للانبياء ويكلمهم، كان يصنع ذلك بواسطة وسيطه «الكلمة الالهي». فالكلمة هو الموحي، والكاشف، والموضح لكلّ شيء.

واذا ما عدنا الى كلّ تعاليم يوستينوس، فما هي طبيعة «الكلمة الالهي» بالنسبة إليه؟ بدون شك، «الكلمة الالهي» هو حقيقة جوهرية، أو بالأحرى، هو كائن حيّ، كما نسمّيه اليوم في لاهوتنا وفلسفاتنا. إنّه مميّز عن الله: «إن كلام موسى يسمح لنا بان نفهم أن الله هو مغاير،

عدداً وطبيعة، لكلمته» (الحوار مع اليهودي تريفون، ٦٢، ٢؛ ٥٦، ١١). ولكنّه يؤكد، في موضع آخر، أن الكلمة ـ اللوغس هو الله ذاته. ففي «الحوار»، من الفصل ٥٦ الى الفصل ٦٢، يحاول ان يبرهن على ان بالقرب من الله المتسامي هناك إله آخر، ليس ملاكاً، ولكن إلهاً حقيقيّاً من الجوهر ذاته. وهذا الاله هو المسيح الذي حمل لنا البشارة من قبل الآب السماوي. إنّه مسيح ايماننا. إنّه مسيح الوحي والانبياء. وبهذا المعنى يقول في الفصل ١٢٨، ٢ ـ ٤، من كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون»، رداً على بعض المشكّكين: «إنّني أعرف أن هناك من يستند الى العهد القديم ليؤكد على أن القوّة التي ظهرت من قبل خالق الكون لموسى وابرهيم ويعقوب هي ملاك أرسله الله للبشر ليعلن لهم ما يريده، وبالتالي قد اتخذت (هذه القوة) شكل انسان حسب ارادة الله الآب. ويقولون ايضاً إنه ليس بالامكان فصل هذه القوة عن الآب، كما أنه ليس بالامكان فصل النور عن الشمس. كذلك يؤكدون على أن الآب بامكانه ان يدفع بقوته ساعة يشاء، كما بامكانه ان يعيدها ايضاً ساعة يشاء. فلهؤلاء نقول: لقد تأكد لنا ان هناك ملائكة ليسوا من جوهر الله، بل خدم له. امّا الكلمة الالهي فهو من جوهر الله، وليس مغايراً له إلاّ عددياً، أو بالأحرى بالتسمية وحسب، لأنّه اقنومه الثاني، وهو يسوع المسيح الذي ظهر بين البشر من

اجل خلاصهم». وللذين يعتبرون ان هناك إلهاً آخر، فلهم يقول: «سوف لا يكون هناك إله آخر، ولم يوجد قبلاً إله آخر إلاّ الذي خلق العالم والكون بارادته. وهذا الاله هو ذاته بالنسبة إلينا نحن المسيحيين، كما بالنسبة الى اليهود. ولا نضع أملنا إلاّ فيه، هو إله ابرهيم واسحق ويعقوب، وإلهنا» (الحوار مع اليهودي تريفون، ١١، ١).

هذا التأكيد على وحدانية الله من قبل يوستينوس دفع بعض اللاهوتيين للشك بامكانية ألوهة الكلمة الالهي. ولكن الواضح في لاهوت يوستينوس هو ان الكلمة ـ اللوغس، في نظره، هو مغاير لله عدداً، وليس فكراً وجوهراً. ولقد فسّر ذلك للمعترضين بالتشبيه التالي: «عندما ننطق بكلمة، فهذا يعني أنّنا نخلق الكلمة، دون الانتقاص منها، ودون اقتطاعها وقسمتها. كذلك عندما نشعل ناراً من نارٍ أخرى، فان النار الاولى لم تنقص، بل تبقى كما هي» (الحوار، ٦١، ٢). بالطبع، هذا التشبيه ربّما لا يقنع بعض العقول لأنه لا يؤكّد على أن ارادة الآب واللوغس هي نفسها، وعلى ان شراكة الجوهر هي واضحة في كلامه. ولكن، يكفيه أنّه حاول تقريب الصورة الى العقول في زمن كان التنظير اللاهوتي في بدايته، ولم تكن الكنيسة قد لملمت شملها لتطرح العقيدة في بعدها الحقيقي نظراً للاضطهاد الذي

كان يلاحقها حتى الدياميس. غير أنّه يؤكد دائماً على ان «الكلمة الالهي» هو ابن الله، وهو وحده الذي بامكانه ان يدّعي ذلك. إنه يسوع المسيح الذي كان معه. إنه بكر الآب السماوي. إنه فرعه وسليله. إنّه بكر الخليقة جمعاء. إنه المتحدّر منه في وحدة الجوهر، كما يقول القديس يوحنا الرسول.

اذن، «الكلمة الالهي»، بعد أن تكشّف جزئياً للفلاسفة، وبعد أن كلّم الآباء والأنبياء في العهد القديم، قد تجسّد في يسوع المسيح، ابن الله. وهذا ما يؤكد عليه في «الدفاع الاول»، قائلاً: «هذه التعاليم لم يوحها الكلمة الالهي لليونانيين بواسطة سقراط وحسب، بل أوحاها ايضاً للبرابرة بيسوع المسيح الذي تجسّد واصبح انساناً لأجل خلاصنا... يسوع المسيح الذي هو ابن الله، وكلمته، وبكره، وقوته، والذي أصبح انساناً بارادته، وأعلن لنا عن توجيهات أبيه السماوي» (٥، ٤؛ ٢٣، ٢). وهنا نرى بوضوح أن يوستينوس يؤكد على سرّ التجسّد وعلى ألوهة المسيح، دحضاً للذين ينكرون هذه الألوهة. وعندما جبهه اليهودي «تريفون» بقوله: «أن تقول إنّ المسيح هو الله، وإنه وجد قبل الدهور، وإنّه قَبِلَ أن يصبح انساناً ويولد، وإنه ليس انساناً كباقي البشر، فان ذلك ليس مستغرباً وحسب، بل هو هراء وجنون وبطلان»، أجابه يوستينوس بقوّة وحزم: «هناك

اناسٌ من عشيرتك قد اعترفوا بأنه المسيح، وبأنه أصبح انساناً بين البشر. هؤلاء لا استند الى كلامهم والى رأيهم لأدعم موقفي، وكذلك اخواني في المسيحيّة، بل نحن نؤكد على أنّه المسيح لأنّ تعاليمه هي تعاليم إلهيَّة، وقد أمرنا بان نخضع لها ونعمل بها» (الحوار، ٤٨، ١، ٩).

هذه الألوهة، ألوهة المسيح، حملت يوستينوس على الاعلان بانّه من الواجب على كلّ مسيحي عبادته، كما نعبد الله الآب: «إنه المعبود، والله، والمسيح. والذي صنع العالم شهد له، وأعلن ذلك بكلّ وضوح» (الحوار، ٦٣، ٥). ولقد ردّد ذلك مراراً، مؤكّداً على أنّ العقل والوحي معاً اعترفا بأنه المسيح المنتظر. لذلك نراه يضع كلّ امكاناته العلميّة والانسانية ليحمل البشر على عبادة المسيح. إنّه الشاهد على ايمان الجماعة التي انتمى إليها، ويؤمن ايمانها، ويشاركها مسيرة الخلاص. وبهذا المعنى يقول عنه اللاهوتي «بوسّيه» (Bousset): «لا نجد شاهداً حقيقيّاً على ايمان المسيحيين بالمسيح، كاله جديد، مثل يوستينوس. واذا كان هذا الرجل الذي نعتبره، بعض الأحيان، عقلانياً الى حدٍّ بعيد، يشدّد بقوّة في براهينه الدفاعية على الميزة العقلانية المطلقة للمسيحيّة التي توجه بها اللاهوت الى فترة؛ واذا كان هذا الرجل لم يملّ من الترديد بأن المسيح هو الله، فذلك لأنّه كان يستند الى التقليد العام الذي أخذه عمّن

سبقه، والى الشعائر الدينيّة التي عاشها بين المسيحيين بكل ايمان وبكل قناعة. فتبشيره بالمسيح الاله الاقنوم الثاني من الثالوث، كان مستنداً الى ايمانه بالوحي، وليس الى تنظيره العقلي، وتحاليله الفلسفيّة» (بوسّيه: المسيح السيد، ١٩٢١، ص ٢٥٣).

وفي الواقع، فان همّ يوستينوس الاوّل كان التأكيد، امام اليهود والوثنيين على السواء، إن في الدفاعين او في الحوار، على ان يسوع المسيح هو حقيقة ابن الله. وما عودته الدائمة الى كتب الانبياء إلاّ ليدعم موقفه في ذلك. هذا ما ألمح اليه اللاهوتي «لاغرانج» (Lagrange) في كتابه «القديس يوستينوس»، قائلاً: «إن يوستينوس كان يعلن ان المسيح هو من ذرّية داود كما جاء في نبوءة أشعيا، وانه سيولد في بيت لحم كما جاء في نبوءة ميخا، وانه سيولد من عذراء كما أكد اشعيا، وكما يوحي سفر التكوين بكلامه عنه كفرع من يهوذا. كذلك كان يذكّر سامعيه بان أشعيا تكلّم عن مجيء المجوس الى بيت لحم لتأدية العبادة للطفل الاله، وبهربه الى مصر الذي يذكره داود، وبتبشير يوحنا المعمدان كما في اشعيا وملاخيا. فداود قال باسم الرب: أنت ابني وانا ولدتك. واشعيا تكلّم عن عجائب يسوع، وخصوصاً عن آلامه. ويعقوب تنبأ عن موته، وزكريّا عن دخوله الى اورشليم على ظهر آتان. وصاحب المزامير تنبأ ايضاً عن صلواته

وآلامه وصلبه. زكريّا تحدّث عن هرب تلاميذه. كذلك نقرأ في المزامير عن المحكمة اليهودية العليا التي حاكمت المسيح، كما عن صمت يسوع امام الوالي الروماني، ومؤامرة اليهود امام هيرودس، وعن ثقب يديه ورجليه، وعن اقتسام ثوبه، وعن هزء اليهود، وعن صرخته الأخيرة على الصليب: إلهي إلهي لماذا تركتني. وصعوده الى السماء. هذه جميعها كان يذكّر بها يوستينوس اليهود ليقنعهم وليدفعهم لاعتناق المسيحية. إنه القديس الذي برهن بكل عمق عن تعلّقه بايمانه وعن الدفاع عنه الى آخر رمق من حياته» (لاغرانج: القديس يوستينوس، باريس، ١٩١٤، ص ٤٦).

هذه النبوءات، كان يذكّر بها يوستينوس اليهود والوثنيين، لأن هؤلاء كانوا يتأثّرون بكلام الانبياء، وبالتالي بكلّ ما هو وحي إلهي. والتشديد على ما جاء في الانبياء كان برهاناً قاطعاً ضدّ «تريفون» الذي وقف اخيراً مذهولاً امام الفيلسوف الشهيد لأنّه اقنعه بواسطة التوراة والانبياء. ورغم ان «تريفون» لم يعتنق المسيحيّة، فبدون شك قد وقف امام ضميره وراجع كتابه، وقد أكّد ذلك المؤرخون اذ اعتقد البعض ان الارتدادات التي حصلت على يد يوستينوس من قبل بعض اليهود كانت نتيجة هذا الحوار العميق الذي دار بين الرجلين القطبين، مسيحياً ويهودياً، في ذلك الزمان.

امّا لماذا تجسّد المسيح، فيجيب يوستينوس سائليه بكل وضوح: اولاً ليعلّم البشر الحقيقة التي فتش عنها كثيرون عبر التاريخ، وخصوصاً الذين غرّهم الشيطان، واتّبعوا تعاليم مغايرة لما أوحاه «الكلمة ـ اللوغس» من خلال العقل، وثانياً ليشاركنا آلامنا وبؤسنا في هذه الدنيا، وثالثاً ليخلّصنا بعد سقطة آدم: «كلمة الله تجسّد ليعلمنا الحقيقة، وليشاركنا آلامنا وبؤسنا، وليشفي امراضنا وعاهاتنا، وليخلصنا ويعيدنا الى بيت الآب السماوي» (الدفاع الثاني، ١٣، ٤ ؛ الدفاع الاول، ٦٦، ٢؛ ٣٢، ٧؛ الحوار، ٤١، ١). وهذا الخلاص، او الفداء، هو تحرير للانسان من عبودية الشيطان الذي حطّمه الله، وحطم مملكته وقواه بواسطة الذي تألم ومات لأجل خلاصنا، يسوع المسيح. فالكلمة ـ اللوغس قد قبل بان يصبح انساناً ويولد من عذراء ومن نسل داود حتى ينتصر على الحيّة، التي ارادت الشرّ للانسان، وتبعها الشياطين مجرّبين، ولاخضاعها بعد ان زرعت الموت القاتل. وبعد هذا التجسّد لا يبقى للحية وللشيطان قوّة لأنّ المسيح قطع دابر الخطيئة التي أبعدت المخلوقات عن الله. واما المعنى الحقيقي لموت المسيح، وخصوصاً لعذابه على الصليب، فان يوستينوس يشرحه «لتريفون» واصدقائه، الذين يعتبرون ان هذا الموت هو لعنة، بالقول: «إن اللعنة ليست ضدّ مسيح الله، بل هي ضدّ الذين اقترفوا الجرائم حسب شريعة

موسى. والمسيح مات ليخلّص هؤلاء من اللعنة» (الحوار ٩٤ و ٩٥). وفي الواقع، فان يوستينوس يعتبر ان جميع البشر هم تحت لعنة شريعة موسى لأن هذه الشريعة ليس بامكان أحد أن يتقيّد بها. وهذه حالة الخطيئة التي أتى المسيح ليخلّص الانسانية منها بموته وبفدائه.

وباختصار، فان المسيح، الكلمة ـ اللوغس، هو وحيد الآب السماوي، واقنومه الثاني، وحامل خطايا العالم. إنّه المخلّص والمعلّم، الذي نزل الى الارض ليبشّر بالحقيقة جميع الذين انتظروها منذ بدء الزمن. إنه واهب الحياة الحقيقيّة للذين تشوّقوا إليها من خلال التزامهم بالشريعة الموسوية، ومن خلال نور عقلهم الذي حرّكه «الكلمة الالهي». إنّه المنفّذ لمخطّط الله الآب، بالشراكة معه، والذي يريد من خلاله عودة الانسان الى الفردوس السماوي. إنّه بكر الآب، وسليله، وكلمته، والفادي الذي انتظره الانبياء في العهد القديم. وبذلك اعطى يوستينوس صورة واضحة لجوهر العقيدة المسيحيّة التي عاشها مع اخوانه في مرحلة من أصعب مراحل تاريخ الكنيسة. إنه الشاهد، والمعلم، والمرشد، والغيور على ايمانه الذي اعتنقه ومات في سبيله.

ج ـ الله الروح القدس في لاهوت يوستينوس

لقد كان يوستينوس حريصاً، كما رأينا سابقاً، على ترابط البنية اللاهوتية التي طرحها من خلال كلامه عن الله الآب وعن الله الابن. فالله الآب هو فائق الوصف، لا حدود له، ولا امكانية للعقل البشري ان يصل الى معرفته. والله الأبن هو بكر الآب، سابق لكلّ خليقة، مطلقٌ، مُعلنٌ لسرّ أبيه، والوسيط الضروري بينه وبين البشر. امّا الله الروح القدس فهو الروح النبوي الذي بشّر به التقليد، والذي عرفه يوستينوس من خلال اعلان المسيح عنه.

هذا الروح النبوي هو الروح القدس نفسه الذي يذكره الانجيل المقدس في متى، ٢٨، ١٩: «إذهبوا الآن وتلمذوا كلّ الأمم معمّدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس». ويعلّق اللاهوتي «پويش» على ذلك قائلاً: «إن إسم الروح النبوي يتضمّن أن الأقنوم الثالث هو الذي أوحى للانبياء في العهد القديم، وهذا ما يذكره ايضاً سفر التكوين في الفصل الاول، العدد ١ ـ ٣، حيث يقول: «في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلامٌ، وروح الله يرفّ على وجه المياه». فهذا الروح ليس الاقنوم الثاني، وليس بالامكان اعتباره كذلك. ويوستينوس يقارن ثالوث افلاطون بالثالوث المسيحي

مؤكداً على ان الاقنوم الثاني يشابه روح العالم الذي تكلّم عنه الفيلسوف الالهي في كتابه «طيماوس» (بويش: المدافعون اليونان في القرن الثاني المسيحي، باريس، ١٩١٢، ص ٣٣٢). ورغم هذا التأكيد فان يوستينوس لم يحدّد بوضوح طبيعة الروح البنوي وشخصيته. الأمر الوحيد الذي يقوله فيه هو انه أوحى للأنبياء، وهذا دوره الاساسي: «عندما كان الانبياء ينطقون بكلامهم، فلم يكونوا هم الناطقون، بل الكلمة الإلهي الذي يحرّكهم» (الدفاع الأول، ٣٦، ١). وفي موضع آخر يقول: «إن قدرة الله قد حلّت على العذراء ولفتها بالنعمة، رغم انها عذراء... وهذا ما عرفناه من الذين أخبرونا عن حياة مخلصنا يسوع المسيح، ونؤمن به لأن الروح البنوي كان قد أعلن عن ذلك سابقاً بواسطة النبي اشعيا. وليس بامكاننا إلاّ ان نؤكد على ذلك لأن روح الله وقدرته قد أوجدت ابنه البكر بواسطة الحبل به في احشاء العذراء، لا بزرع بشري، بل بقدرته العلية» (الدفاع الاول، ٣٣، ٤ ـ ٦). ولكن الصعوبة التي واجهت يوستينوس هي أنّه اعتبر الى حين ان الروح القدس نفسه قد تجسّد في العذراء، وان الكلمة الالهي هو هذا الروح، ولكنّه في النهاية يعود الى الانجيل ويؤكّد تعليم الكنيسة، معلناً ان هناك الله الآب والله الابن والله الروح القدس لكي لا يقع في خطأ تفاسيره الفلسفية وتحاليله العقلية التي اعتبرها قاصرة عن

فهم الحقيقة الالهية التي أتى بها المسيح.

وفي النهاية، لا نجد عند يوستينوس تحديداً لاهوتياً للروح القدس، ذلك ان عقله، كما أعلن مراراً، لا يدرك جوهر هذا الروح، لذلك نراه يؤكد على تعليم التقليد، مستنداً الى الانجيل المقدس، ومدافعاً بشدّة عن تعاليم الكنيسة في هذا المجال. من هنا اعتبره اللاهوتيون والمؤرخون الصورة الحقيقيّة لقناعة الكنيسة في القرن الثاني المسيحي، والرائد في تثبيت الايمان في وجه المناهضين له ولمعتقده ولايمانه.

د ـ الملائكة في لاهوت يوستينوس

الذي يلفت النظر في جميع مؤلفات يوستينوس هو الدور الكبير الذي يعطيه للقوى غير المنظورة. فرداً على الملحدين الذين كانوا يتهمون المسيحيين بانهم جعلوا من الملائكة آلهة صغيرة على مثال الله، أكد يوستينوس على أن اخوانه في الايمان لا يعتقدون إلاّ بالله الآب الحقيقي العادل وبالابن الذي ظهر من قبله، محاطاً بجيش من الملائكة الصالحين الذين يشابهونه، وبالروح النبوي. فالملائكة هم ارواح من غير جوهر الآب والابن والروح القدس، ولهم أوكل الله حراسة البشر والسهر عليهم. إنهم احرار مثل البشر، وبامكانهم السقوط في الخطيئة، رغم أنهم ارواح سامية. وبهذا المعنى يقول:

«إن الله قد صنع، في البدء، البشر والملائكة اسياد انفسهم... وكل خليقة بامكانها ان تصنع الخير والشر، وعلى ذلك تنال المكافأة في آخر الزمان» (الدفاع الثاني، ٧، ٥ ـ ٦).

من هنا، فان يوستينوس يرفض ان يكون الملائكة من جوهر الله وطبيعته، ويعتبر انهم ارواح اوجدها الله لخدمته وللقيام بمهام يكلفهم بها في هذا الكون، وخصوصاً السهر على البشر ليبقوا تحت نظر الله ويعملوا من اجل خلاصهم. وان معتقده هذا هو معتقد الكنيسة وليس تحليلاً عقلياً أوصله الى ذلك. لذلك متوجبٌ اكرامهم من قبل البشر، والالتجاء اليهم للتوسط امام الله من اجل مساعدتهم. كما ان يوستينوس يؤكد على ان هؤلاء الملائكة لهم أجساد كاجساد البشر، لذلك سقطوا في الخطيئة بتعاطيهم مع النساء وولد لهم أبناء هم الشياطين: «الملائكة، الذين رفضوا ارادة الله، قد أقاموا علاقة مع النساء، وأولدوا منهم أبناءً نسمّيهم الشياطين» (الدفاع الثاني، ٢، ٥). وهكذا بقي الملائكة الصالحون في خدمة الله، والملائكة الاشرار أعني الشياطين، ضدّ الله، يسعون لابعاد الانسان عن الله.

هـ ـ الشياطين في لاهوت يوستينوس

يقول يوستينوس، إن جميع الملائكة لم يبقوا أوفياء

لله. فهناك عدد كبير منهم قد رفض طاعة الله، وبنوع خاص رئيسهم الذي يسمّيه حيناً الحيّة، وحيناً آخر الشيطان او أبليس، حسب ما جاء في الكتب المقدسة (راجع «الدفاع الاول»، ٢٨، ١؛ والحوار ١٠٣، ٤). ويفسّر الفيلسوف الشهيد خطيئة الشيطان بأنه سقط جنسياً مع حوّاء، لذلك اعتبر ان رفض ارادة الله لم يكن قبل خلق الانسان، بل بعده، اذ إنَّ غواية حوّاء للملاك هي التي دفعته لارتكاب الخطيئة، ولجلب اللعنة عليه، مستنداً في تفسيره هذا على ما جاء في سفر التكوين: إن أبناء الله قد خطئوا مع بنات البشر. وامّا الاولاد الذين ولدوا من هذا اللقاء بين ابناء الله وبنات البشر فهم ما نسمّيهم بالشياطين. ومنذ ذلك الوقت ابتدأ هؤلاء الشياطين بفرض سيطرتهم وملكهم على الجنس البشري.

وفي مقطع من كتابه «الدفاع الثاني»، الفصل الخامس، العدد ٤، يقول: «وبعدئذ، فقد أخضع الشياطين الجنس البشري، امّا بواسطة السحر، وامّا بواسطة الخوف والعذابات التي كانوا ينزلونها بالبشر، فارضين عليهم تقديم الذبائح والبخور واراقة الخمر وكلّ ما هم عطشون إليه بعد أن أصبحوا عبيد شهواتهم». ولقد عبدهم البشر، واعتقدوا انهم آلهة، من خلال خوفهم منهم، ومن خلال الشعوذات التي كانوا يضعونها في قلبهم. امّا الحكماء أمثال سقراط فلقد

حاولوا افتضاح أمرهم، لكنهم (أعني الشياطين) توصلوا الى محاكمتهم وقتلهم. كذلك هم الشياطين الذين اخترعوا جميع الاساطير التي أغوت النفوس البشرية، والتي جعلوها تشابه الاسرار المسيحيّة. ومنذ مجيء المسيح قد دفعوا بالكافرين والهراطقة امثال سيمون وماركيون وغيرهما لتعليم ما يخالف ارادة الله. كذلك هم (أعني الشياطين) وراء اضطهاد المسيحيين، محاولين اخضاع جميع البشر لهم، سواء بواسطة الاحلام، او بواسطة السحر، من اجل ابعادهم عن الخلاص. ثم زرعوا الحقد والضغينة والنميمة ضدّ المسيحيين ليكونوا ضحيّة الحكّام الذين أعموهم عن الحق، في الامبراطورية الرومانية، وتصلبوا في مواقفهم كأنهم أناس مسكونون بالشيطان، ولم يتراجعوا عن موقفهم الاجرامي.

ولكن، يقول يوستينوس، إن سلطة الشياطين ليست غير محدودة. فمنذ مجيء المخلّص قد حاولوا ان يزوّروا تعاليمه، لكنهم لم يقدروا ان يعزوا لابن «جوبيتر» موتاً خلاصياً على الصليب، لأن هذا الموت هو موتٌ رَمَزَ إليه الذين أوحى لهم الروح النبوي. وعندما أتى المسيح صدموا بقوته ساعة حاول الشيطان ان يجرّبه، وارتدّ خائباً لأن قوّة الله هي أقوى من قوته. من هنا فانّ غيظهم (اعني الشياطين) ضد المسيحية لم

يكن فاعلاً. والله، الذي بامكانه ان يقضي عليهم بلحظة، قد تركهم يجرّبون المسيحيين لكي يتقوّوا بالايمان، ولكي يزيد عددهم، طاردين هؤلاء الشياطين بواسطة صلواتهم واتكالهم على الله. لذلك، فان حكم الشيطان اصبح منتهياً، ولسوف يُلقى في النار الأبدية، كما أعلن ذلك المسيح. وامّا البشر الذين يتبعونه فلقد اعطي لهم ان يتوبوا من اجل خلاصهم، بواسطة اسم المسيح الذي يرعبهم: «إنّنا نسمّيه «العضد» و «الفادي»، ذلك الذي يرعب اسمه الشياطين. وهؤلاء الشياطين يخضعون بواسطة اسم يسوع المسيح الذي صلب على عهد بيلاطوس البنطي الذي كان والياً على اليهودية. والله الآب قد اعطى هذا الاسم قوة لا يقدر الشياطين على مقاومتها» (الحوار، ٣٠). ونقلاً عن يوستينوس، من كتاب ضاع مع الزمن، يقول القديس «ايريناوس»، مستشهداً بالفيلسوف الشهيد: «إن الشيطان لم يعرف انه سيحكم عليه لأن الأنبياء تحدّثوا بالامثال وبالرموز. ولكن، بعد مجيء المخلص، ومن كلام المسيح نفسه والرسل، فانه (اي الشيطان) عرف، بدون شك، ان النار الأبدية قد أُعدّت له لأنّه خلّ بعهده مع الله، وكذلك الذين لم يندموا على خطاياهم، كافرين وملحدين» (ضدّ البدع، ٥، ٢٦).

هذا المفهوم عن الشيطان والشياطين قد لفت نظر

الفلاسفة واللاهوتيين عبر الزمن، متسائلين عن هذا التعليم الذي اطلقه يوستينوس، وبالتالي عن ترابطه مع العقيدة الكنسيّة. منهم من أكّد على أن يوستينوس، رغم التزامه بعقيدة الكنيسة الجامعة، كانت له آراؤه الخاصة حول هذا الموضوع، ومنهم من قال إن المفهوم الكنسي السائد في ذلك الزمان كان هو اياه. ولكن، في الواقع، إن كلامه على العلاقة الجنسية بين الشيطان وحوّاء قد أدهش البعض، خصوصاً وإن المفهوم الكنسي اليوم يختلف كثيراً عن مفهوم يوستينوس نفسه. إنّما يمكننا القول إن يوستينوس، رغم هذه الشروحات المتعدّدة، لم يخرج عن مفهوم الايمان في العقيدة الجوهرية التي كان مدافعاً عنها حتى الموت. اما مفهومه للشيطان فيبقى ضمن إطار الاجتهاد الشخصي، وذلك لم يقيّد الكنيسة في شيء، ولم يمنعها من اعتباره من اهم الفلاسفة واللاهوتيين في القرن الثاني المسيحي الذي طبعه بروحانيته وتلمذ عشرات من التلامذة الذين كانوا المدافعين عن الانجيل وتعاليمه.

و ـ النفس البشرية في لاهوت يوستينوس

قضية النفس البشريّة طرحها يوستينوس من منطلق مسيحي، وليس من منطلق فلسفي. فهو يقرّ بوجودها، دون أن يحدّد ماهيتها وطبيعتها، خصوصاً وان كلامه

على الشياطين لم يكن الاّ من خلال علاقتهم بالنفوس وبتأثيرهم عليها. فالانسان، المركّب من نفس وجسد، هو عرضة للضياع وللهلاك، كما ان نفسه بامكانها الارتفاع الى مستوى معرفة الله اذا تنوّرت بنور «الكلمة الالهي»، وعملت بوحي هذا النور. ولكن الغريب في تعليمه هو أنّه يشدّد، غالب الاحيان، على أن النفس ليست خالدة بذاتها لأنها مخلوقة، وكلّ مخلوق ليس خالداً إلاّ اذا ارتفع الى الله وعمل بوحيه وتعاليمه. لذلك يعترف ان النفوس هي مائتة، مؤكداً في كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون» على أن خلاصها لا يكون إلاّ اذا كانت جديرة بالله. وبهذا المعنى يقول: «إنه لأمر جيد بالنسبة الى الأشرار ان نعترف بان نفسهم خالدة. ولكن، بالعكس، فان النفوس الصالحة، المؤمنة، تبقى في مكان سعادة، والنفوس الشريرة في مكان هلاك، بانتظار دينونة الله الأخيرة. وهكذا، فالنفوس التي هي جديرة بالله لا تموت، بل تخلد، والنفوس الشريرة تتعذّب وتبقى طالما الله يريد عذابها، ثم تزول» (الحوار، ٥، ٣).

في هذا المقطع يتكلّم يوستينوس وكأنه يعتقد ان عذاب الاشرار سينتهي. ولكن، في مكان آخر، يعلن عن اعتقاده بأن أبديّة جهنم هي للاشرار، بنفسهم وبجسدهم، وان عذابهم سيدوم الى الأبد، وليس لمدة ألف سنة، كما علّم «افلاطون» (الدفاع الاول، ٧، ٤). فخلود النفس

هو مفروض لأن الله موجود، ولأن هذه النفس عليها ان تؤدّي حساباً على كلّ ما فعلته في هذه الدنيا. ولو لم يكن هذا الحساب موجوداً لكان الله ذاته غير موجود، ولكانت ايضاً انتفت الحرية الانسانية. والبراهين التي يعطيها يوستينوس على ذلك نابعة من الحسّ البشري المشترك لجميع المخلوقات البشرية، وبالتالي من الخبرة والمعاناة اليومية التي يعيشها الانسان في كلّ لحظة من لحظات حياته، بقطع النظر عن التأكيدات العقلية والدينية التي تلتقي في الجوهر. وبهذا المعنى يقول في كتابه «الدفاع الثاني، الفصل السابع، العدد الرابع، ما يلي: «إذا سلّمنا بان القدر يجعل من هذا الانسان صالحاً او من ذلك شريراً، فهذا ليس في الواقع لا تكريماً له، ولا لوماً. واذا كان الانسان غير قادر على فعل الخير وتحاشي الشرّ بحريّة كاملة، فهذا يعني انه ليس مفروضاً عليه الجواب على اعماله. لذلك نرى هذا الانسان ينتقل، في حياته، من الخير الى الشرّ، ومن الشرّ الى الخير، بقرار ذاتي، او بمسلك يختاره ولا يفرض عليه. من هنا، لو كان خيّراً او شرّيراً بطبعه لما كان هذا التغيير، ولما كان هذا التناقض في حياته، ولما كان هذا الانتقال من حالة الى حالة. لذلك، فان حريته تؤكد على أنّه يقوم باعمالٍ هو مسؤول عنها، وبالتالي سيحاكم عليها بعدئذٍ».

اذن باختصار، فان النفس البشرية هي خالدة، بنعمة من الله اولاً، وبالتالي من خلال اعمالها التي تهيّئها لهذا الخلود. والخلود، إمّا يكون خلوداً في السعادة، او خلوداً في الشقاء والعذاب. وبقدر ما يصنع الانسان خيراً، بقدر ذلك ينال جزاءً حسناً، وبقدر ما يفعل شرّاً، بقدر ذلك ينال جزاءَ عذاب وآلام وشقاء. وحتى «افلاطون» ذاته، الذي يستشهد به يوستينوس، يقول: «إن الخطيئة هي للذي يفعلها، والله لا شأن له بذلك» (الدفاع الاول، ٤٤). وبالطبع، فان كلام «افلاطون» يعتبره يوستينوس مأخوذاً عن النبي اشعيا وعن سفر تثنية الاشتراع وعن الانبياء، لأنه يعتبر ان الفيلسوف الالهي قد قرأ العهد القديم وتأثر به. وما العودة الدائمة لافلاطون كما للكتاب المقدس سوى تأكيد على ان يوستينوس حاول دائماً ان يقرّب بين ما تعلّمه في مدرسة الفيلسوف الاغريقي الذي أوصله الى اكتشاف الله، وبين ما اوصلته إليه المسيحيّة التي اعتنقها ودافع عنها ومات من اجلها، اعترافاً بألوهة الاقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، يسوع المسيح، ابن الله، الذي أتى الى العالم ليخلّص البشرية ويعيدها الى شراكة السعادة مع الله. وبذلك حمل الكثيرين من فلاسفة الوثنيّة على اعتناق المسيحيّة، وكان رائداً في ذلك.

ز ـ سرّ العماد في لاهوت يوستينوس

سرّ العماد، بالنسبة الى يوستينوس، هو سرّ الاشراق الالهي، والانفتاح البشري على النعمة التي يغدقها الله على كلّ من يدخل حرم الكنيسة من خلال الماء والميرون الذي يعطي المنضوي تحت لوائها قوّة ومراساً وتفهّماً عميقاً لسر التجسّد الالهي. فالالتزام بالكنيسة لا يكفيه الصوم، ولا تكفيه الصلاة، واعمال الاحسان، وغيرها من الفضائل المفروضة، بل متوجبٌ اولاً قبول سرّ العماد ليصبح الانسان عضواً فاعلاً في بيعة الله. وبهذا المعنى يقول في كتابه «الدفاع الاول»، الفصل ٦١، ٢ ـ ٣، ما يلي: « إن الذين يؤمنون بحقيقة تعاليمنا وبعقيدتنا يوافقون اولاً على العيش حسب هذه التعاليم وهذه العقيدة. حينئذٍ نعلـّمهم كيف يرفعون الصلاة وكيف يطلبون من الله، بواسطة الصوم، مغفرة خطاياهم، كما نحن نرفع الصلاة على نواياهم ونصوم معهم لكي يعطيهم الله نعمة الغفران. وبعد ذلك، نأخذهم الى جرن العماد حيث المياه المقدسة، وهناك، بالطريقة نفسها التي تجدّدنا فيها نحن، يجدّدهم الله بدورهم. وذلك بغسلهم بالماء باسم الله، أب وسيّد كلّ شيء، وباسم يسوع المسيح مخلصنا، وباسم الروح القدس». وسرّ العماد هذا، يقول يوستينوس، هو اشراق مقدّس لأنّ الذين ينالونه يتنوّرون بالروح المنوّر، ويعتبرون مولودين

جدداً بقوّة الله وبنعمته.

فالعماد اذن، في نظر يوستينوس، ينير الروح، ويكشف عن اسرار الكلمة الالهي، ويغفر الخطايا. إنّه الغسل المقدّس من آثامنا التي ولدنا فيها والتي اقترفناها في حياتنا. وهذا ما يؤكد عليه قائلاً: «بما اننا، يوم ولادتنا الاولى، قد ولدنا في الجهل، وحسب الضرورة، من زرعٍ سائلٍ، بواسطة اتحاد أهلنا؛ وبما اننا كبرنا في عادات سيّئة وشاذّة؛ لذلك يجب أن يُوسم طالب التجدّد والندامة على خطاياه باسم الله الآب والسيّد لجميع المخلوقات، وحتى لا نبقى ابناء الجهل والضرورة، وحتى نصبح ابناء الحريّة والمعرفة، وحتى تغفر الخطايا التي اقترفناها سابقاً» (الدفاع الاول، ٦١، ١٠). والملحوظ هنا أن الخطيئة التي يتكلم عنها يوستينوس ليست الخطيئة الاصلية، بل التي اقترفها اولئك الذين ارادوا العماد بعد ان اصبحوا راشدين. فالعماد يمحو جميع الخطايا الشخصية التي يكون قد اقترفها البشر قبل تقدّمهم الى المياه المقدّسة. وهذا العماد وحده الذي يهيّء الانسان لتقبّل سرّ الافخارستيا. لذلك نراه يؤكّد على تناول جسد الربّ بعد العماد ليكون المسيحي مسيحيّاً بكلّ معنى الكلمة. فما هي نظرته الى سرّ الافخارستيا؟ هذا ما سنراه الآن.

ح ـ الافخارستيا في لاهوت يوستينوس.

يقول يوستينوس: «بعد عماده، يتقدّم المنوّر من الاخوة، كما نسمّيهم، فنرفع الصلاة معه، لنا وله، ومن اجل جميع الاخوة المنتشرين في العالم، لأننا عرفنا الحقيقة، نحن المؤمنين بكلمة الله، والتي نعمل بها من اجل خلاصنا الأبدي. وبعدئذٍ يقبّل بعضنا بعضاً، بعد ان ننهي الصلاة. ثم يُقدّم للذي يترأس الاخوة خبزٌ وخمرٌ ممزوجٌ بالماء في كأس، فيأخذهم ويرفع المجد والحمد لله، أب الكون، باسم الأبن والروح القدس، ثم يشكر الله على نعمه التي تنازل واعطانا اياها في الخبز والخمر. وبعد ان ينهي المحتفل والمترأس أفعال الشكر والصلوات يهتف الجميع بصوت واحد: آمين... وفي الختام، بعد الصلوات النهائية، وبعد هتاف المؤمنين، يوزّع الشمامسة على الحاضرين خبز الافخارستيا والخمر والماء فيتناولوا ويأخذوا معهم للذين تغيّبوا عن الاحتفال لسبب مرض او سفر» (الدفاع الاول، ٦٥).

وفي موضع آخر يصف يوستينوس الافخارستيا وصفاً يكمل الاوّل قائلاً: «وفي اليوم الذي يقال له يوم الشمس، يجتمع جميع الساكنين في المدن والحقول في مكان واحد. وقبل كلّ شيء تُقرأ فصول من اعمال الرسل ومن الانبياء، قدر ما يسمح ذلك. ثم يصمت القارىء ليتقدّم المترأس ويوبّخ الحاضرين ويحثّهم على

التمثّل بما سمعوه. وبعد ذلك، نقف جميعاً ونرفع الصلوات. وكما قلنا سابقاً، عندما ننهي الصلوات، يُقدَّم الخبز والخمر والماء للرئيس الذي رفع صلوات الشكر لله ويبارك، والجميع يهتف بصوت واحد: آمين. وكلّ واحد يحصل على جسد الرب ودمه، ثم ترسل الافخارستيا للغائبين بواسطة الشمامسة» (الدفاع الاول، ٦٧، ١ ـ ٥).

هذان النصّان هما أقدم وصف للاحتفال بسرّ الافخارستيا في القرنين الاول والثاني للمسيحيّة. وشهادة يوستينوس هي مهمّة جدّاً لأنّه نقل ما عاشه ورآه في فلسطين وآسيا وروما. فالاحتفال هو نفسه في كلّ مكان، رغم ان الصلوات لم تكن بعد محدّدة، وتتغيّر بتغيّر المناسبة. والاجتماع يتمّ نهار الأحد لأنه ذكرى اليوم الاوّل الذي خلق فيه الله الخليقة، وبالتالي لأنه ذكرى يوم قيامة المسيح من القبر (الدفاع الاول، ٦٧، ٧). وهذا الاجتماع له ميزة خاصة طقسيّة، ولا يكون كباقي الاجتماعات التي يلتقي فيها المسيحيون. إنّه اجتماع لا يتكلّم فيه إلاّ المحتفل والشمامسة، وما على المؤمنين إلاّ الهتاف بكلمة «آمين»، التي تعني: حقاً هو كذلك. ففي البدء تقرأ فصول من اعمال الرسل ومن الانبياء، تتبعها عظة الرئيس المحتفل. ويلاحظ هنا أن يوستينوس لا يذكر اذا كان هذا الرئيس هو الاسقف او

غيره، ولكن التقاليد تؤكد على أن الاسقف هو الذي يترأس دائماً، إلاّ اذا كان هناك من عائق خاص، فساعتئذ يكلّف أحد الكهنة. والملحوظ ايضاً ان يوستينوس لاً يستعمل في كتابه المفردات الخاصة بسرّ الافخارستيا لأن هذا الكتاب كان موجّهاً للوثنيين. امّا عن الرئيس، فهو مميّز عن الجمهور، وبالتالي له حقّ التوبيخ والتأنيب والحثّ على التمثّل بكلام الله وبسيرة الرسل والانبياء. وبعد العظة، ترفع الصلوات من الجميع على نية الكنيسة جمعاء، وهذا برهان على اتحاد المؤمنين بجسد المسيح السرّي اينما كانوا في العالم. امّا قبلة السلام التي تتبع الصلوات فهي الرمز الظاهر لوحدة القلوب والنفوس، وتهيئة للبدء بالذبيحة حيث يقدم الخبز والخمر والماء. وبعد صلوات الشكر لله من قبل المحتفل، يبارك هذا الخبز وهذا الخمر الممزوج بالماء، ويقدّمه للمؤمنين لتناول جسد الرب ودمه، وليوزّع بعدئذٍ على الحاضرين والغائبين بواسطة الشمامسة.

هذا هو الاحتفال الخارجي للافخارستيا كما جاء في وصف يوستينوس. فما هو البعد اللاهوتي الحقيقي لهذا الاحتفال؟ يقول في الفصل السادس والستين من «الدفاع الاول»: إنّ هذا الغذاء يُسمّى عندنا الافخارستيا. وليس لأحدٍ ان يشارك فيه إلاّ اذا آمن بتعاليمنا، وتعمّد بعماد

مغفرة الخطايا، وبالولادة الجديدة، وعاش كما علّم المسيح، وذلك لأننا لا نعتبر هذا الخبز كخبز عادي، ولا الخمر كخمر عادي، بل هو جسد المسيح مخلصنا ودمه، بعد ان تجسّد بواسطة كلمة الله وأصبح الغذاء الافخارستي من مجرّد إعلان كلمات التكريس التي نطق بها هو. ولقد أكّد ذلك الرسل في الاناجيل قائلين: وبعد العشاء أخذ يسوع خبزاً وقال اصنعوا هذا لذكري، فهذا هو جسدي، وهذا هو دمي للعهد الجديد.

فالافخارستيا تعني اولاً عند يوستينوس فعل الشكر، ومن ثم الغذاء الافخارستي الذي يكرّسه المحتفل (الاسقف غالباً)، وهو الخبز والخمر اللذين يستحيلا جسد الرب ودمه. كذلك يعتبر الفيلسوف الشهيد ان الافخارستيا هي الخبز والخمر بدون فعل الشكر او صلوات الشكر. وكل ذلك يعود للمسيح الذي اعطانا الخبز جسده والخمر دمه في العشاء السرّي. والخبز والخمر ليسا غذاءً عادياً ومشرباً عادياً، بل هما جسد يسوع المسيح ودمه، وهذا ما شدّد عليه ضدّ الذين اعتبروا اخوانه المسيحيين أكلة لحوم البشر. لقد كان بامكانه ان يقول للوثنيين ان ذلك هو رمز، ولكنه أكّد على ان الخبز والخمر هما جسد المسيح ودمه، مقارناً بين التجسّد والافخارستيا: «إنه كما تجسّد المسيح بواسطة كلمة الله، هكذا فان الخبز والخمر، بعد اعلان

الكلام المقدس، يصبحا جسد يسوع ودمه. وكما كان للمسيح جسد حقيقي ودم حقيقي، فكذلك الافخارستيا هي جسده الحقيقي ودمه الحقيقي». وكيف يكون ذلك؟ يوستينوس لا يطرح على نفسه هذا السؤال، ولا يحاول ان يحلّل كلاهوتي ليقنع السامعين والقارئين، بل يقدّم الأمر من منطلق ايماني، بكلّ قناعة وبكل ثقة بتعليم المسيح والكنيسة. انّما يؤكّد على أن جسد المسيح ودمه يحوّلان الانسان ويجعلانه خالداً من مجرّد تناولهما. فالافخارستيا هي شفاء النفس وخلودها، كما ان التجسّد هو خلاصها واستمرارها.

وختاماً لنظرة يوستينوس اللاهوتية للافخارستيا، فانّه من الضروري العودة الى هذه النصوص التي تؤكّد لنا على البعد الكوني لذبيحة المسيح الخلاصية. يقول في كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون»، الفصل ٧، عدد ٤، ما يلي: «إنّ المسيح قد أمرنا بالاحتفال بسرّ الافخارستيا تذكيراً بالآلام التي تحمّلها من اجل ان يتطّهر البشر وتتخلص نفوسهم من الخطيئة، حتى بذلك نرفع الشكر لله الذي خلق العالم بكل ما فيه من اجل الانسان، والذي خلّصنا من الشرّ الذي ولدنا فيه، والذي قوّض وهدم، نهائياً، الممالك والقوى الشريرة التي جعلتنا متألمين وخاضعين لها». وفي موضع آخر يقول: «إن الذبائح التي نقدّمها له، نحن الأمم، في كلّ مكان،

أعني الافخارستيا، فان الله قد كلّمنا عنها مسبقاً عندما طلب منّا ان نمجّد اسمه ونعلن مجده» (الحوار، ٤١، ٣). وكذلك يؤكد ايضاً: «إن الله يُسرّ بجميع الذبائح التي تقدّم له بواسطة يسوع المسيح، أعني بواسطة الافخارستيا، في الخبز والخمر، وبواسطة الصلوات التي يقدّمها المؤمنون الجديرون بمحبة الله. وهذا ما اؤكّده انا شخصياً. إنهم المسيحيون وحدهم الذين وصل إليهم هذا التقليد، وهو ان يقدّموا الذبيحة تذكاراً لموت المسيح ولفدائه لنا» (الحوار، ١١٧، ١ ـ ٣).

هذه النصوص كانت سبباً لجدال عنيف حول ما اذا كان يوستينوس يعتبر القربان المقدس سرّاً من الأسرار. الجواب نجده في الفصل الحادي والاربعين من كتابه «الحوار مع اليهودي تريفون» حيث يقول: «مشيئتي ليست فيكم، يقول الرب، ولن أقبل قرابينكم من ايديكم أنتم... يتمجّد اسمي بين الأمم من شروق الشمس الى مغربها، وفي كلّ مكان يُقدّم قربان باسمي، قربان طاهر، لأن اسمي كبير في الأمم، بينما انتم تدّنسونه (ملاخيا، ١: ١٠ ـ ١٢)... والحال انه يتكلم هنا مسبقاً عن قرابين (خبز الافخارستيا وكأس الافخارستيا) نقدمها نحن الأمم بقوله إننا نمجد اسمه بينما انتم تدنسونه». ولا ريب فان يوستينوس يطابق هنا بوضوح القربان المقدس على الذبيحة التي تنبأ بها ملاخيا. غير ان ثمة مقاطع

يبدو وكأن القديس الشهيد يرفض فيها كلّ ذبيحة، إذ يقول في الفصل السابع عشر بعد المئة من «الحوار» ما يلي: «وان تكون الصلوات صادرة عن رجال جديرين هي وحدها، دون سواها، الذبائح الكاملة المستحبّة من الله، والمقبولة لديه، فهذا ما أؤكّده انا ايضاً». وفي الفصل الثالث عشر من «الدفاع الاول» يعطينا رأياً مماثلاً بقوله: «ان الطريقة الوحيدة اللائقة باكرامه، حسب ما علّمنا، ليست في ان نحرق الأشياء التي أوجدها من اجل قوتنا ومعيشتنا، ومن اجل ان نجعل للفقراء نصيبهم منها، بل في ان نسبّحه على نعمة الحياة التي منحنا إيّاها». وهذا القول دفع ايضاً ببعض المنتقدين لاعتبار يوستينوس لا يوافق إلا على الصلاة، وبنوع خاص على صلاة الافخارستيا وحسب. غير ان تفسيراً كهذا يخالف حقيقة فكرته، إذ لا يجوز ان نفهم تصوّره الذبيحة بمعزلٍ عن عقيدته حول «اللوغس» او «الكلمة الالهي». فما يرفضه هو الذبيحة الماديّة كما اعتاد ممارستها الوثنيون واليهود. وهو بمفهومه للذبيحة يحاول ان يمدّ جسراً فوق الهاوية الفاصلة بين الفلسفة الوثنية والمسيحية. كما كان لفكرته عن «الكلمة الالهي» الغاية نفسها. امّا الهدف، او المثل الاعلى، الذي سعى إليه، فهو الذبيحة الروحية التي اعتاد فلاسفة اليونان الاعلان عنها كأنها الطريقة الوحيدة التي تليق باجلال الله واكرامه. وهنا، كما في حال «الكلمة» او «اللوغس»، فان المسيحية

تمثل اتمام المثل الفلسفي الأعلى، لأنها تمتلك ذبيحة روحية كالذبيحة الالهية، او القداس الالهي. وكل ما في الأمر ان يوستينوس يوافق الفلاسفة اليونانيين وانبياء العهد القديم على فكرة إبطال الذبائح المادية التي لم يعد ثمة مكان لها، وللدم الذي يسيل فيها. ومن خلال ضمّه هذه الفكرة، ودمجها بعقيدة المسيح، أكسب يوستينوس المسيحية اسمى ما انتجته فلسفة اليونان، وشدّد في الوقت نفسه على الطابع الجديد الذي تفرّدت به الشعائر المسيحية، منوّهاً بروحانية تمنح تلك الشعائر تفوّقها على سائر الذبائح الوثنية واليهودية على حدٍ سواء.

ط ـ الحياة بعد الموت في لاهوت يوستينوس

الانسان، في هذه الدنيا، ليس بامكانه ان يهيّء لقاءه مع الله إلاّ اذا كان حرّاً من قيد الخطيئة، وذلك لا يكون إلاّ بمساعدة النعمة الالهيّة. فنحن الذين كنا نعيش في الخطيئة، ونفعل جميع الشرور، قد تطهّرنا بنعمة الله وبارادته بعد مجيء المسيح الذي حمل الينا الخلاص. والعالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم جديد، عالم تلامذة المسيح الذين تحرّروا من كلّ الشرور واصبحت ارادتهم قوّية ليجابهوا اغراءات الشيطان المستمرّة. امّا الخطيئة الاصلية فلم تعد تؤثّر، في نظر يوستينوس، لأن: «المسيح صلب ومات ليخلّص الجنس البشري منها،

بعد سقطة آدم التي حملت إلينا الموت» (الحوار، ٣٨، ٤).

وامّا عن مصير النفوس بعد الموت، فيقول يوستينوس إنّها ستكون في مكان أعدّه الله لها ليوم القيامة، أعني ليوم الدينونة الأخيرة. فالنفوس الصالحة تكون في مكان صالح، والنفوس الشريرة في مكان عذاب، حتى يعود المسيح بمجده وعظمته، مع جوق الملائكة، ليدين الاحياء والأموات. ويوم الدينونة تكون القيامة العامّة التي فيها تعود النفوس الى اجسادها، فالصلاّح الى خلود مع الله بالسعادة، والاشرار الى جهنم النار مع الشياطين ابدياً. وفي النهاية، فان العالم سيحترق وسيعود الى ما كان عليه قبل خلقه والله سيكافيء النفوس الصالحة بان تكون معه الى الأبد، امّا النفوس الشرّيرة فستتعذّب الى ما لا نهاية.

الخلاصة

في نهاية هذه الدراسة عن يوستينوس الروماني، الفيلسوف الشهيد، أحد «عظماء المسيحيّة في التاريخ»، لا يمكننا تحديده إلاّ بكلمات ثلاث: صدق واستقامة وأمانة. فالرجل، الذي أتى من الوثنية الى المسيحية، لم يكن يهدف إلاّ الى أمر واحد: اكتشاف الله، ومعرفته بالعمق، والالتزام بشرائعه وبتعاليمه. أليس هو القائل لمحاوره اليهودي «تريفون»: إنّني لا أهتمّ لشيء آخر سوى لقول الحقيقة، دون خوف من احدٍ، حتى ولو قُطّعت إرباً؟ (الحوار، ١٢٨). أليس هو القائل: «إن أجمل صلاةٍ أرفعها الى الله هي من اجلكم ايها الاخوة لكي تؤمنوا مثلنا بان يسوع المسيح هو مسيح الله» (الحوار، ١٤٢). أليس هو القائل لوالي روما «روستيكوس» عندما سأله يوم مَثُلَ امامه للمحاكمة: «أتعتقد أنك ستصعد الى السماء لتُكافأ على كلّ ما فعلته؟ وهو المجيب: انا لا أعتقد، بل أعرف واؤكّد».

لقد تميّزت حياة القديس الفيلسوف بايمان مضطرم بالمسيح، وبشهادة دائمة لكلمة الله، وبشوق الى الاستشهاد بطولي، جعلت منه جميعها أباً من آباء

الكنيسة الجامعة، وملفاناً من الملافنة العظام الذين أغْنَوا المسيحيّة بفكرهم النيّر وبمثلهم الصالح. فهو الانسان الذي لم يساوم في شأن العقيدة، بل كان مناضلاً عنها وعن اخوانه في حظيرة الربّ. وهو الانسان الذي عرف، بوحي سماوي، أنّ الله ليس للمسيحيين وحسب، بل هو أب جميع البشر، لذلك كانت محاولاته العديدة لتقريب وجهات النظر بين المسيحية والوثنية التي كانت تبحث عن الله من خلال فلاسفتها الالهيين. وهكذا كان حصاده كبيراً عندما توجّه الى الفلاسفة زملائه يحدّثهم عن الله والمسيح والروح القدس، فارتدَّ كثيرون منهم لأن منطقه أقنعهم، ولأنّ الحقيقة التي كانوا يفتّشون عنها وجدوها في كلامه كما وجدها هو في كلام الشيخ الجليل الذي التقاه على شاطىء البحر. أليس هو القائل: «إن كلّ حقيقة نطق بها الانسان في هذا الكون هي ملكٌ لنا نحن المسيحيين»؟ (الدفاع الثاني، ١٣). أليس هو القائل: «إن كلّ انسان عاش بالحكمة والحق والعدل هو مسيحيٌّ، حتى ولو كان وثنياً»؟ (الدفاع الاول، ٤٦).

ويبقى يوستينوس صاحب اوّل مدرسة في تاريخ المسيحيّة، مدّت الجسور مع اليهودية والوثنية، وأثمرت ارتدادات أغنت الكنيسة، وكانت مثلاً يحتذى للقرون اللاحقة.

المسيحيّة بفكرهم النيّر وبمثلهم الصالح. فهو الانسان الذي لم يساوم في شأن العقيدة، بل كان مناضلاً عنها وعن اخوانه في حظيرة الربّ. وهو الانسان الذي عرف، بوحي سماوي، أنّ الله ليس للمسيحيين وحسب، بل هو أب جميع البشر، لذلك كانت محاولاته العديدة لتقريب وجهات النظر بين المسيحية والوثنية التي كانت تبحث عن الله من خلال فلاسفتها الالهيين. وهكذا كان حصاده كبيراً عندما توجّه الى الفلاسفة زملائه يحدّثهم عن الله والمسيح والروح القدس، فارتدَّ كثيرون منهم لأن منطقه أقنعهم، ولأنّ الحقيقة التي كانوا يفتّشون عنها وجدوها في كلامه كما وجدها هو في كلام الشيخ الجليل الذي التقاه على شاطىء البحر. أليس هو القائل: «إن كلّ حقيقة نطق بها الانسان في هذا الكون هي ملكٌ لنا نحن المسيحيين»؟ (الدفاع الثاني، ١٣). أليس هو القائل: «إن كلّ انسان عاش بالحكمة والحق والعدل هو مسيحيٌّ، حتى ولو كان وثنياً»؟ (الدفاع الاول، ٤٦).

ويبقى يوستينوس صاحب اوّل مدرسة في تاريخ المسيحيّة، مدّت الجسور مع اليهودية والوثنية، وأثمرت ارتدادات أغنت الكنيسة، وكانت مثلاً يحتذى للقرون اللاحقة.